نزار قباني

ديوان العشق العربي

- محام قضيته الوحيدة «المرأة».
- عندما فشل في أن يكون رساماً أو موسيقياً قرر أن يكون شاعراً
- التقى «بلقيس» وكان وحيداً وكانت قبيلة من النساء
- «منع» في مصر وأعادته رسالة لعبد الناصر
- رضع من أمه حتى بلغ السابعة وأطعمته بيدها حتى سن الثالثة عشرة.
- أمير الشعراء الغنائي.

مرَّ بالشعر العربى كثيرون وكثيرون، منهم عباقرة «وفطاحل» فى عالم الشعر.

غير أن واحداً فقط، أثار من الضجيج والحب والكراهية والإعجاب والرفض، ما لم يثره الآخرون.

هو نزار قبانى شاعر الحب والمرأة، والوطن، وديوان العشق العربى على مدى خمسين عاماً، الذى توفى فى الثلاثين من إبريل «نيسان» سنة ١٩٩٨م، وترك لنا ٣٥ ديواناً وكتاباً، من أجمل ما كُتب فى الشعر العربى، وشجون الإنسان العربى.

عُرف نزار قبانى فى شرق الوطن العربى وفى غربه، وقرأ له رجال ونساء، وأعجب به صغار وكبار، وصارت دواوينه، مثل روايات إحسان عبد القدوس مما يُزرع فى المخدة أو يهجع فى السرير.

المدلل

ولد نزار قبانى سنة ١٩٢٣، فى «مئذنة الشحم» فى دمشق، ليعيش طفولته مدللاً بين إخوته، فى منزله الدمشقى الأصيل، وهو من البيوت الشامية القديمة، ويتكون من طابقين، أحدهما مكشوف مصنوع من الرخام والأعمدة الرخامية، التى يتسلقها الياسمين الأبيض والورد الأحمر وفيها شجر الليمون، وفى منتصف الباحة نافورة مياه.

نشأ نزار فى هذا الجو الرومانسى الجميل تربطه بأمه علاقة حميمة، فقد ظلت ترضعه من صدرها حتى بلغ السابعة من عمره، وتطعمه الطعام بيدها حتى بلغ الثالثة عشرة، حتى قالوا عنه إنه يعانى من عقدة «أوديب» عاشق أمه، حتى إن بعض العلماء النفسيين أخذ يطلق علم النفس على شعر نزار، ويرى أن سر استعماله كلمة «نهد» هو طول فترة رضاعته.

وعندما كان فى الثالثة عشرة، من عمره كان ضيوف أبيه يسألون: «ما هى اهتمامات نزار؟ فيجيبهم والده بكل بساطة؟ «ابنى يريد أن يكون شاعراً» فيتغير لون سائليه، ويتصبب العرق البارد من جباههم ويلتفتون إلى بعضهم قائلين: «لا حول ولا قوة إلا بالله.. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا».

لكن نزار لم يبدأ حياته شاعراً بل بدأ بأشياء فنية أخرى مثل الرسم، وكان مولعاً بالألوان ويصبغ الجدران بها. وأدرك أنه لن يكون رساماً عبقرياً، فقرر أن يجرب الموسيقى والتلحين، فأحضر عوداً وطلب من أمه أن تأتى له بأستاذ يعلمه العود والموسيقى، وبدأ يتلقى دروسه الموسيقية، لكن الأستاذ بدأ معه بطريقة غير موفقة، فقد بدأ بالنوتة الموسيقية وهى علم مثل الرياضيات حسب قوله، وهو يكره الرياضيات.

ميلاده الشعرى

كان عمره ١٦ عاماً، عندما سافر سنة ١٩٣٩م فى رحلة بحرية إلى روما مع المدرسة، وأثناء وقوفه على سطح السفينة، شاهد الأمواج والدرافيل، وهى تقفز حول الباخرة فجاءه أول بيت شعرى ثم الثانى والثالث والرابع، وهكذا، فنزل سريعاً وكتب الأبيات، كى لا ينساها ولا تضيع، واضعاً إياها طى الكتمان حتى لا يسخر أصحابه، ونام تلك الليلة، ولأول مرة فى حياته، يوم ١٥ أغسطس شاعراً للمرة الأولى واستيقظ وهو شاعر أيضاً.

التحق نزار بكلية الحقوق لدراسة القانون، إلا أنه لم يمارس القانون ولم يمارس قضية الدفاع فى حياته إلا عن قضية واحدة، وهى قضية المرأة.

عندما كبُر نزار قبانى وصار شاباً لم ينفصل عنه الطفل، بل كبر معه بكل سلوكياته الصاخبة وأنانيته، وعندما فشل فى أن يكون رساماً أو موسيقياً، قرر أن يكون شاعراً، وهو يعرف تماماً أن التفرد لن يكون إلا بالاختلاف وهى موهبة لا يجيدها كثيرون.

ومنذ ديوانه الأول «**قالت لى السمراء**» الذى أصدره نزار قبانى، الطالب فى

كلية الحقوق، على نفقته الخاصة، أثار هذه الصوت المختلف جدلاً عنيفاً، وصفه نزار فيما بعد فقال: «لقد هاجمونى بشراسة وحش مطعون، وكان لحمى يومئذ طرياً»، ويسهل أن نتصور رد الناس على شاعر لم يبلغ العشرين من عمره يتوجه لهم بقصيدة عنوانها «**خبز وحشيش وقمر**»، ينتقد فيها سلوكياتهم فقد هلل أناس للقصيدة، بينما طالب آخرون برأس من قالها، ويبدو أن الضجة أثارت شهية الطفل الشاب نزار ووجدها أول سطر فى كتابه الأسطورى.

العمل الدبلوماسى

تخرج نزار سنة ١٩٤٥م فى كلية الحقوق فى جامعة دمشق، ثم التحق بوزارة الخارجية السورية، وانتقل فى العام ذاته إلى القاهرة موظفاً دبلوماسياً فى السفارة السورية، وكان عمره آنذاك ٢٢ عاماً، وكانت القاهرة فى ذروة نضجها الثقافى والصحافى والإذاعى، وكان نزار يحمل فى جعبته ديوان شعر جديداً اسمه خارج على المألوف فى عالم الكتاب وهو «**طفولة نهد**» وكانت صياغته الشعرية غير مألوفة أيضاً، فى ذلك الزمان.

قدم نزار الديوان لثلاثة من نجوم الفكر والصحافة والنقد، هم: توفيق الحكيم وكامل الشناوى وأنور المعداوى، الذى تحمس للشاعر الشاب فكتب مقالاً نقدياً عن الديوان وحمله إلى أحمد حسن الزيات صاحب مجلة «الرسالة» المصرية، ولما كانت «الرسالة» مجلة محافظة نشر الزيات نقد المعداوى لكن بعد أن غير عنوان الديوان من طفولة نهد إلى «طفولة نهر» فقال نزار تعليقاً على هذا: «وبذلك أرضى (حسن الزيات) صديقه الناقد أنور المعداوى وأرضى قراء الرسالة المحافظين، الذين تخيفهم كلمة النهد وتزلزل وقارهم، ولكنه ذبح اسم كتابى الجميل من الوريد إلى الوريد».

وهكذا شهدت القاهرة ميلاد شاعر انطلق فى بيئة تحفل بطه حسين وعباس محمود العقاد، وعبد القادر المازنى، وعبد العزيز البشرى، وأحمد حسن الزيات ومصطفى صادق الرافعى ومحمود حسن إسماعيل وبيرم التونسى وإبراهيم

ناجى، ونجيب محفوظ، ويحيى حقى، وعزيز أباظة.

وهكذا تعود على مصر وتعودت مصر عليه وصارت تعتبره واحداً من شعرائها أو من أولادها.

لكن حياة الدبلوماسيين لا تستقر بمكان، فانتقل نزار إلى العمل فى عدة عواصم بعد القاهرة منها: «أنقرة ولندن ومدريد وبكين وبيروت».

وظل نزار يعمل فى الخارجية السورية أكثر من ٢٠ عاماً، حتى استقال منها ١٩٦٦م وأسس داراً للنشر فى بيروت باسمه، متفرغاً بذلك لقراره الوحيد، وهو الشعر.

زواج وطلاق

تزوج نزار بعد سنوات من انتسابه إلى السلك الدبلوماسى السورى، بقريبة له هى «زهراء أقبيق» أم ابنه توفيق وأبنته هدباء، وقد جاء زواجه بها فى مرحلة البدء فى إقلاعه نحو عالم الكفاح الصعب بسيف الشعر ونحو آفاق الشهرة.

وكانت زهراء «سيدة بيت» نمت وترعرعت فى بيئة اجتماعية محافظة شامية تقليدية، وكانت اتصالات ورسائل «المعجبات» قد بدأت تنهمر على نزار وسيماً أنيقاً رشيقاً قوياً رقيقاً فى آن، ولم تكن لزهراء قدرة تعينها عل تحمل أن يكون زوجها لها ولغيرها، فكانت تسارع إلى تمزيق رسائل المعجبات به وبشعره، ولم يكن ثمة مفر من تصادم الماضى بالمستقبل الآتى الأكثر تطوراً وجمالاً، فطلقها نزار بالحسنى.

وفى عقد الخمسينات ارتبط نزار بعلاقة، بحفيدة رئيس الوزراء السورى الأسبق فارس الخورى، كوليت خورى ابنة سهيل خورى، النائب الأسبق فى المجلس النيابى السورى، وبعد زواجها بشاب إسبانى فارع الطول وسيم الملامح، أنجبت منه طفلتها الوحيدة، سجلت كوليت تفاصيل علاقة الحب والعواطف التى

جمعتها بنزار، وفى روايتها الأولى الشهيرة، «أيام معه»، كان نزار هو بطل الرواية.

على عرش بلقيس

التقى نزار بـ «بلقيس» للمرة الأولى ولم يكن يعلم أن عقله وقلبه سيتعلقان بها إلى هذا الحد المجنون، الذى دفعه رغم الرفض المتواصل إلى الاستمرار فى التقدم لخطبتها حتى نال ما كان يحلم به، التقى بها فى حفل استقبال بسيط فى إحدى السفارات العربية فى بيروت، وكان خارجاً لتوه من أزمة وفاة زوجته الأولى «زهراء» الدمشقية، وولده «توفيق» الذى توفى إثر عملية جراحية للقلب فى لندن، وهو لا يزال فى الثانية والعشرين من عمره، وكانت ابنته الوحيدة «هدباء» قد تزوجت وانتقلت لتعيش مع زوجها فى إحدى دول الخليج العربية، كان نزار وحيداً تماماً وكانت «بلقيس» قبيلة من النساء، هيفاء فرعاء يكاد شعرها يلامس الأرض فى استرسال لم تر عين نزار مثله، هكذا رآها، عفية وهدارة بشكل جعله يعود إلى كتابة الشعر مرة أخرى بعد توقف دام ثلاث سنوات، لم يكن يعرف له نزار مبرراً، ويقول: «لكنها بلقيس، أعادت الحبر للأقلام مثلما أعادت الدماء للعروق».

تقدم نزار لخطبة بلقيس، لأول مرة عام ١٩٦٢م لكن عائلتها رفضت لما كانت تسمع عن نزار من أنه شاعر النساء والغزل والحب ولم تأمن على أبنتها أن تعيش مع رجل كل كلامه عن النساء، وظل نزار يلاحقها بإصرار شديد مدة سبع سنوات، رفضت خلالها أشخاصاً عديدين لأنها تحب نزار، على الرغم من أنه يكبرها كثيراً، فهى فتاة لم تتجاوز ٢٣ عاماً، وهو فى سن الأربعين، وعاود الكرة عام ١٩٦٩م وكانت الموافقة وتزوجا ليعيشا معاً فى بيروت، ورزقا بطفلين: زينب وعمر، ونعم نزار معها بحب عميق لا تشوبه شائبة ولا تعكر صفوه الأيام، حتى جاء اليوم المشؤوم الذى فقد فيه كل شئ، فقد قُتلت بلقيس عام ١٩٨١م فى حادث انفجار دمر السفارة العراقية فى بيروت، وصمت نزار ليصيح وقد جن جنونه:

«سأقول فى التحقيق، إنى عرفت القاتلين

بلقيس يا فرسى الجميلة، إننى من كل تاريخى خجول.

هذى بلادى يقتلون فيها الخيول.

سأقول فى التحقيق:

كيف أميرتى اغتصبت، وكيف تقاسموا فيروز عينيها وخاتم عرسها

وأقول كيف تقاسموا الشَّعر الذى يجرى كأنهار الذهب

سأقول كيف استنزفوا دمها، وكيف استملكوا فمها فما تركوا به وردًا ولا تركوا به عنباً

هل موت بلقيس، هو النصر الوحيد فى كل تاريخ العرب؟!».

وببكن نزار بمرارة، زوجة سقته من حنانها ١٢ عاماً، نعم فيها بالراحة والسكينة، وصار يجمع ولديه زينب وعمر، ويغلق بابه منذ الغروب بعيداً عن الناس، عله يسبح بخياله فيقابل طيف بلقيس.

الموت والولادة

لماذا هو الشاعر الذى عندما تقرأ كلماته أى امرأة تشعر بأنها هى التى تتكلم؟ ولماذا يحمل نزار لقب «نصير المرأة»؟ لماذا عاش ومات يدافع عن النساء؟

هو نفسه لا يدرى، ويتساءل: «هل كان موت أختى فى سبيل الحب، أهم العوامل النفسية التى جعلتنى أتجه إلى الكتابة عنها وعن مشاعرها وإحساسها؟ هل كان ذلك تعويضاً لما حرُمت منه أختى؟

وعلى جسد المرأة صعد نزار قبانى رقيقاً، أحياناً، مثل الفراشة الهامسة

«حبك يا عميقة العينين

حبك مثل الموت أو الولادة

صعب أن يُعاد مرتين»

وكان يخرج من رقته أحياناً ليدخل المجال الذى يحلو للآخرين أن يصفوه بالفحش وهو داخله.

ومع كل هذا كانت لنزار قبانى آراء سياسية شديدة العمق، فرأيه أن مشكلتنا فى العالم العربى هى التخلف وسيادة التفكير الضيق ودبلوماسية الوساطة والتوكيلات.

وعن سلوكنا السياسى العربى يقول نزار: «إن سلوكنا السياسى هو مجموعة من السلبيات وسلسلة طويلة من الجبرية والقدرية، محاولة لدفع قوى خارجية لا قدرة لنا على دفعها أو ردها».

نحو الوطن

حدثت منذ سنة ١٩٦٧م انعطافة جذرية فى شعر نزار، وتحول من شاعر المشاعر النسائية والجسد الأنثوى، إلى شاعر سياسى، فقال فى نكسة يونيو (حزيران) ١٩٦٧م قصيدة ذائعة الصيت **«هوامش على دفتر النكسة»**، لكن الشاعر الكبير صالح جودت، شن عليه هجوماً، بالغ العنف. لم يقتصر على الوقوف ضد قصيدة نزار، بل طالب بمنع بث أعماله فى مصر، ويُقال إن سبب تلك الحملة هو نجاح نزار المتميز فى مصر، فى مجال الغناء بعد ظهور أغانيه المشهورة مثل «أيظن» و «ماذا أقول له».

ونجحت الحملة وصدر قرار بمنع أغانى نزار وأشعاره من خلال التلفزيون المصرى، بل ومُنع اسمه نهائياً. وصدر فى الكتمان قرار بمنعه من دخول مصر. وكانت تلك القرارات بالنسبة إليه أشبه بإصدار حكم الإعدام.

لكن نزار بادر وأرسل إلى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، رسالة هذا جزء منها:

«سيادة الرئيس، فى هذه الأيام التى أصبحت أعصابنا فيها رماداً وطوقتنا الأحزان من كل مكان، يكتب إليك شاعر عربى، يتعرض اليوم من قبل السلطات الرسمية فى الجمهورية العربية المتحدة لنوع من الظلم لا مثيل له فى تاريخ

الظلم، وتفاصيل القصة أننى نشرت فى أعقاب النكسة قصيدة عنوانها «هوامش على دفتر النكسة»، أودعتها خلاصة ألمى وتمزقى، وكشفت فيها عن مناطق الوجع فى جسد أمتى العربية، لاقتناعى بأن ما انتهينا إليه لا يعالج بالتوارى والهروب، وإنما بالمواجهة الكاملة لعيوبنا وسيئاتنا، وإذا كانت صرختى حادة وجارحة، وأنا أعترف سلفاً بأنها كذلك، فلأن الصرخة تكون فى حجم الطعنة، ولأن النزيف بمساحة الجرح، ومَنْ منا يا سيادة الرئيس لم يصرخ بعد ٥ حزيران؟ مَنْ منا لم يخدش السماء بأظفاره؟ مَنْ منا لم يكره نفسه وثيابه وظله على الأرض؟ إن قصيدتى كانت محاولة لتقييم أنفسنا كما نحن..».

وختم رسالته بقوله: «يا سيادة الرئيس: لا أريد أن أصدق أن مثلك يعاقب النازف على نزيفه، والمجروح على جراحه ويسمح باضطهاد شاعر عربى يريد أن يكون شريفاً وشجاعاً، فى ظل مواجهة نفسه وأمته، فدفع ثمن صدقه وشجاعته.

يا سيادة الرئيس لا أصدق أن يحدث هذا فى عصرك» وكان تاريخ الرسالة ٣٠ تشرين الأول أكتوبر سنة ١٩٦٧م ونجحت هذه الرسالة فى إنقاذ نزار قبانى من الإعلام، بعد أن أوصلها الكاتب أحمد بهاء الدين إلى الرئيس عبد الناصر، وعادت أغانيه تتردد فى الإذاعة والتفزيون، وعن هذا يقول نزار: «كسرت الحاجز بين السلطة والأدب».

فى اتجاه العروبة

وهكذا طاف نزار بأشرعة الشعر بحار الحب وعوالم الحرية، وخاص بقلمه بلا تزييف أو تضليل؟، لا لأنه يكرههم فينقص منهم ويقلل من قدرهم، بل لأنه يحب العروبة والعرب ولا يُريد لهم الانغماس فى بحر عدو لدود شمَّر عن ذراعيه وجمع عتاده وسلاحه وتربص به ريب المنون.

ولم يبعد نزار عن قضايا وطنه، حتى عندما استقر به المقام بعيداً فى مدينة الضباب، لندن، حيث كان قلبه فى اتجاه عروبته دائماً.

وقبل الرحيل بعشر سنوات عاود نزار الحنين إلى المنزل الذى وُلد فيه وإلى شجرة الياسمين التى علمته حب الجمال، وشد الرحال إلى دمشق حيث زار المنزل العائلى، الذى نشأ فيه وكأنه أراد أن يودع ملاعب الطفولة.

وآن للغريب أن يعود إلى حضن الأرض التى أنجبته، بعد أن أسلم نزار الروح فى ٣٠ إبريل عام ١٩٩٨م عاد إلى دمشق جثماناً محمولاً بالطائرة إلى الرحم التى علمته الشعر والإبداع وأهدته أبجدية الياسمين، فقد أوصى نزار قائلا: «أدفن فى دمشق الرحم التى علمتنى الشعر والإبداع واهدتنى أبجدية الياسمين».

أعمال نزار شعراً ونثراً

قالت لى السمراء ١٩٣٩، طفولة نهد ١٩٤٥، سامبا ١٩٤٩، أنت لى ١٩٥٠، قصائد ١٩٥٦، حبيبتى ١٩٦١ الرسم بالكلمات ١٩٦٦، هوامش على دفتر النكسة ١٩٦٧، يوميات امرأة لامبالية ١٩٦٨، قصائد متوحشة ١٩٧٠، كتاب الحب ١٩٧٠، مئة رسالة حب ١٩٧٠، أشعار خارجة على القانون ١٩٧٢، أحبك أحبك والبقية تأتى، «إلى بروت الأنثى مع حبى»، «كل عام وأنت حبيبتى» ١٩٧٨، أشهد أن لا امرأة إلا أنت ١٩٧٩، مواويل دمشقية إلى قمر بغداد ١٩٧٩، هكذا أكتب تاريخ النساء ١٩٨١، قاموس العاشقين ١٩٨١، أشعار مجنونة ١٩٨٣، الحب لا يقف على الضوء الأحمر ١٩٨٣، والكلمات تعرف الغضب ١٩٨٣، قصتى مع الشعر ١٩٨٣، قصائد مغضوب عليها ١٩٨٦، تزوجتك أيتها الحرية ١٩٨٨، جمهورية جنونستان، مسرحية ١٩٨٨، الكبريت من يدى ودويلاتكم من ورق ١٩٨٩، الأوراق السرية لعاشق قرمطى ١٩٨٩، لا غالب إلا الحب ١٩٩٠، هوامش على الهوامش ١٩٩١، هل تسمعين صهيل

أحزانى؟ ١٩٩١، أنا رجل واحد وأنت قبيلة من النساء ١٩٩٣، خمسون عاماً فى مديح النساء ١٩٩٤، تنويعات نزارية على مقام العشق ١٩٩٦.

قالوا عن نزار

* «حزنت حزناً كبيراً على وفاة الشاعر العظيم نزار قبانى، أنه شاعر وهب حياته لمعشوقتين: المرأة والقومية العربية، وكتب فيهما أجمل الأشعار، التى وصلت إلى كل الجماهيره».

(نجيب محفوظ)

* «نزار قبانى هو أشهر الشعراء العرب فى النصف الثانى من القرن العشرين، بلا منازع كانت لغته الشعرية سهلة بسيطة، ومن فرط بساطتها ورقتها، تشعر بأنه يمكنك أن تكتب الشعر».

(الكاتب الصحافى أحمد بهجت)

* «أحببت «نزار» من بين سطور أشعاره».

(زوجته، بلقيس الراعى)

* «سوف تبقى كلماته طبولاً تدق فى أزمنة الصمت العربى».

(الشاعر فاروق جويدة)

* «قصائد نزار كالماء الزلال».

(الأديب اللبنانى الدكتور سهيل إدريس)

أمير الشعر الغنائى

تسابق المطربون الكبار على مدى ٤٠ عاماً، للحصول على قصائد نزار، وهم:

* أم كلثوم: غنت له أغنيتين، «أصبح عندى الآن بندقية»، «ورسالة عاجلة إليك»، من ألحان محمد عبد الوهاب،

* عبد الحليم. غنى أغنيتين أيضا، هما: «رسالة من تحت الماء» و «قارئة الفنجان» من ألحان محمد الموجى.

* نجاة الصغيرة: غنت له أربع أغنيات، «أيظن» و «ماذا أقول له» و «كم أهواك» و «أسألك الرحيلا»، ولحن القصائد الأربع محمد عبد الوهاب.

* فايزة أحمد: غنت له قصيدة واحدة هى «رسالة من امرأة» لحنها محمد سلطان.

* فيروز: غنت له قصيدتى «وشاية» و «ولا تسألنى ما اسم حبيبى» من ألحان عاصى الرحبانى.

* ماجدة الرومى: غنت له ٣ قصائد هى: «بيروت يا ست الدنيا» و «مع جريدة» وهما من ألحان الدكتور جمال سلامة: ثم «كلمات» من ألحان إحسان المنذر.

* كاظم الساهر: غنى له أربع قصائد: «إنى خيَّرتُك فاختارى» و «زيدينى عشقاً» و «علمنى حبك» و «مدرسة الحب» وكلها من ألحان كاظم نفسه.

* أصالة: غنت له قصيدة «أغضب» التى لحنها حلمى بكر.